

## من حديث النفس في القرآن

حينما تتعرض الأمم والشعوب للنكبات تزلزلها وتبليبلها ، يكون من الواجب على أفرادها أن يعودوا إلى أنفسهم ، ليتبينوا مواضع أقدامهم ، ومواقع خطواتهم ، لأنهم يكونون حينئذ في أشد الحاجة إلى عملية تجديد أو بناء جديد ، حتى تعود نفوسهم لبناتٍ صالحةٍ لإقامة صرح الأمة المشيد .

ولذلك يقول الحق جل جلاله في سورة الزعد : « إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » ( الآيَة ١١ ) ويقول رسول الله عليه صلوات الله وسلامه : « عليك بنفسك » .

ولو رجعنا إلى كتاب ربنا « القرآن الكريم » لوجدناه يحدثنا عن خمسة أنواع من النفوس ؛ فهو يحدثنا عن النفس الأمانة بالسوء ، والنفس المسؤلة للشر ، والنفس الموسوسة بالإثم ، والنفس اللوامة على التقصير ، والنفس المطمئنة بالرضى واليقين .

والنفس الأمانة بالسوء هي التي تدعو صاحبها إلى ارتكاب الذنوب والسيئات ، وتحرضه على الانحراف والفجور ، وتدفع به إلى مهاوى الضلال والخبال ، لأن كلمة « أمانة » صيغة مبالغة من الأمر ، وفيها يقول التنزيل

الحكيم في سورة يوسف : « وما أُبْرِي نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي » . ( الآية ٥٣ )

ويقول الإمام الرازي : « اختلف الحكماء في أن النفس الأمارة بالسوء ما هي ؟ . والمحققون قالوا : إن النفس الإنسانية شيء واحد ، وطها صفات كثيرة ، فإذا مالت إلى العالم الإلهي كانت نفساً مطمئنة ، وإذا مالت إلى الشهوة والغضب كانت أمارة بالسوء . وكونها أمارة بالسوء يفيد المبالغة ، والسبب فيه أن النفس من أول حدوثها قد ألفت المحسوسات ، والتذت بها ، وعشقتها ، فأما شعورها بعالم المجردات وميلها إليه ، فذلك لا يحصل إلا نادراً في حق الواحد فالواحد ، وذلك الواحد ، إنما يحصل له ذلك التجرد والانكشاف طول عمره في الأوقات النادرة . فلما كان الغالب هو انجذابها إلى العالم الجسداني ، وكان ميلها إلى الصعود إلى العالم الأعلى نادراً ، لاجرم حكم عليها بكونها أمارة بالسوء ، ومن الناس من زعم أن النفس المطمئنة النطقية . ، وأما النفس الشهوانية والغضبية فهما مغايرتان للنفس العقلية » .

وحدثنا القرآن الكريم عن النفس المسؤلة ، وهي النفس التي تزير القبيح ، فتعرضه في صورة الجميل ، وتسوِّغ أهواءها بمكر وبراعة ، قترسم الشر وكأنه خير ، وتقيم الدليل بعد الدليل - من وهمها وزعمها - على أن شهواتها معقولة مقبولة . وجاء هذا المعنى من أنه يقال : سولت له نفسه كذا تسويلاً : أي زينته وحببته إليه ليفعله . وسول فلان لفلان كذا : أي زينته وحببته إليه ليفعله .

وفي هذه النفس يقول القرآن المجيد في سورة يوسف : « قال بَلْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ » . ( الآية ١٨ ) أي زينت لكم أنفسكم أمراً ، من التسويل وهو تقدير معنى في النفس

مع الطمع في إتمامه ، وكأنه أمانة للنفس تطلبها فيزيئها الشيطان لها . ويقول أيضاً في سورة يوسف : « قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ، عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ، إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ » ( الآية ٨٣ ) . ويقول في سورة طه : « وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي » . ( الآية ٩٦ ) . ويقول في سورة محمد : « إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ » . ( الآية ٢٥ )

وحدثنا الكتاب المجيد عن النفس الموسومة ، وهي التي تهمس إلى صاحبها بالصوت الخفى الذى لا يكاد يُسمع من الأعماق ، لتذكره محواطر الإثم ومشاعر المنكر ، لأن الوسوسة في الأصل هي الصوت الخفى ، ويقال لحديث النفس : وسوسة ، وهو ما يخطر بالبال ، ويهجس بالضمير ، والوسواس هو الشيطان الذى يوسوس لغيره ، ولهذا جاء قول الله تعالى في سورة الناس ، « قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ، مَلِكِ النَّاسِ ، إِلَهِ النَّاسِ ، مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ، الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ، مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ » .

وفي النفس الموسومة يقول القرآن المجيد في سورة ق : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَّمْهُ مَا تَوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ » . ( الآية ١٦ ) وقد أشار القرآن إلى موقف المؤمنين المتقين إذا عرض لهم الشيطان بشيء من وسوسته ، فقال في سورة الأعراف : « إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ » . ( الآية ٢٠١ )

ويتحدث « تفسير المنار » عن معنى الآية الكريمة ، فيذكر أن هؤلاء المتقين - وهم خيار المؤمنين - إذا ألمَّ بهم طائف من الشيطان ليحملهم بوسوسته على المعصية ، تذكروا أن هذا من عدوهم الشيطان وبين إغوائه .

واستعاذوا بالله ، فإذا هم أهل بصيرة ترباً بأنفسهم أن تطيع الشيطان ، فوسوسته إنما تؤثر في الغافلين عن أنفسهم ، الذين لا يحاسبونها على خواطرها ، الغافلين عن ربهم لا يراقبونه في أهوائها وأعمالها . ولا شيء أقوى على طرد الشيطان وإفساد صومته من ذكر الله تعالى بالقلب ، ومراقبته في السر والجهر ، فذكر الله تعالى بأى نوع من أنواعه يقوى في النفس حب الحق ودواعي الخير ، ويضعف فيها الميل إلى الباطل والشر ، حتى لا يكون للشيطان مدخل إليها ، وهو إنما يزئ لها الباطل والشر بقدر استعدادها لأى نوع منهما ، فإن وجد بالغفلة مدخلا إلى قلب المؤمن التقي لا يلبث أن يشعر به ، لأنه غريب عن نفسه ، ومتى شعر ذكر فأبصر ، فخنس الشيطان وابتعد عنه ، وإن أصاب منه غرة قبل تذكره تاب من قريب .

ومثل المؤمن المتقى المتجنب لوسوسة الشيطان كمثل المرء الصحيح المزاج ، القوى الجسم ، التنظيف الثوب والبدن والمكان ، لا تجد ميكروبات الأمراض المفسدة للصحة استعداداً لإفساد مزاجه ، وإصابته بالأمراض ، فهي تظل بعيدة عنه ، فإن مسه شيء منها بدخوله في معدته أو دمه ، فتكت بها قوى الصحة والعافية ، فحالت دون فتكها به وهذا ما يسمى في عرف الطب بالمناعة أو الحصانة أو المقاومة .

وكذلك يكون قوى الروح بالإيمان والتقوى ، غير مستعد لتأثير وسوسة الشيطان في نفسه ، فهو يطوف بها يراقب غفلتها ، وعروض بعض الأهواء النفسية لها ، من شهوة أو غضب أو داعية حسد أو انتقام ، فيقاومها ويدفعها عنها . . .

• • •

وحدثنا القرآن المجيد عن النفس اللوامة ، وأهل اللغة يقولون إن اللوامة

صيفة مألوفة في لائم ، فهو من يشتد في لومه ، أو من يكثر اللوم ، وهي لومة ، والنفس اللوامة هي التي تلوم صاحبها لوماً شديداً على ارتكاب الشر ، أو التقصير في عمل الخير ، وربما تكون هي « الضمير » بحسب التعبير المعاصر .

وفي اللوم معنى المؤاخذة والتأنيب ، وفي هذه النفس يقول القرآن الكريم في سورة القيامة : « وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ » ( الآية ٢ ) . وقال أهل التفسير إنها النفس التي تلوم صاحبها لوماً شديداً موصولاً ، على ارتكابه السيئ أو تقصيره في العمل الطيب ، وتندم على ما فات ، وتحاسب عليه .  
والإمام الحسن البصرى رضى الله عنه يقول : « إن المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسه : ما أردتُ بكلمتي ؟ ما أردتُ بأكلتي ؟ ما أردتُ بحديث نفسي ؟ وإن الفاجر يمضي قدماً لا يحاسب نفسه » .

فالنفس اللوامة إذن نفس متيقظة حذرة خائفة ، تلتفت حولها ، وتدبر أمرها ، وتساائل ذاتها بين الحين والحين : أين أنا من الطريق ؟  
ولقد تحدث « تفسير المنار » عن قوله تعالى : « ولقد هممتُ به وهمَّ بها لولا أن رأى برهان ربه » ( يوسف الآية ٢٤ ) . وتعرض لموقف الإنسان من ترك المعصية فقال : « هاهنا مرتتان : إحداهما الكف عن المعصية جهاداً للنفس ، وكبحاً لها خوفاً من الله تعالى ، وهي مرتبة الصالحين الأبرار ، ومرتبة الكراهة لها والاشمئزاز منها ، حياة من الله ومراقبة له واستغراقاً في شهوده ، وهي مرتبة الصديقين والنبیین الأخيار ، الذين إذا عرضت لهم الشهوة المستلذة بالطبع بالصورة المحرمة في الشرع ، عارضها من وجدان الإيمان ، وبجلى الرحمن ، ما تغلب به روحانيتهم الملكية ، على طبيعتهم الحيوانية ، وهذا قد يحصل لمن دون الأنبياء منهم ، فكيف بمن يرون برهان ربهم بأعين

قلوبهم ، وينعكس نوره عن بصائرهم فيلوح لأبصارهم . . .  
 ولطه المرتبة درجات ، منها فقد الشهوة الطبيعية في هذه الحال ، أو  
 فقد الشعور بالقدرة على وضعها في الموضع المحرم مع وجودها على أشدها ،  
 ولا عجب فقوى النفس وانفعالاتها الوجدانية تتنازع ، فتغلب أوقاها أضعفها ،  
 حتى إن من الإباحيين والإباحيات من أهل الحرية الطبيعية من يملك في  
 مثل تلك الخلوة منع نفسه أن يبجحها لمن يراوده عنها ، لا خوفاً من الله ولا  
 حياء منه ، لأنه غير مؤمن به أو بعقابه ، بل وفاة لزوج أو عشيق عاهده على  
 الاختصاص به فصدقه . .

° ° °

ثم تأتي النفس المطمئنة . . . تأتي في الذروة وعلى القمة ، والطمأنينة  
 هي السكون وعدم الانزعاج ، واليقين بلا ارتياب ، والرسوخ بلا اضطراب ،  
 لأنها نفس آمنت بالله ، واعتصمت بحبل الله ، ولجأت إلى حمى الله ، ومن  
 كان كذلك فقد استوى على صراط مستقيم : « الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ  
 بِذِكْرِ اللَّهِ ، أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ » ( الرعد الآية ٢٨ ) .

وهذه النفس المطمئنة المؤمنة الموقنة ، الراضية بالله ، والراضية عن الله ،  
 يناديا ربها أكرم نداء ، ويدعوها ألطف دعاء ، ويستقدمها إلى أعظم أمل  
 وأحلى رجاء ، فيقول لها في سورة الفجر : « يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ، ارْجِعِي  
 إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ، فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي » . . .  
 ( الأيتان ٢٧ - ٣٠ ) .

ومتى يناديا ربها هذا النداء الحلو الجميل النبيل ؟

إنه يناديا به عند الهول الأكبر ، وفي موقف الكرب الأعظم ، ومن  
 ثانيا الرعب المرززل ، الذي يصوره صوت الحق جل جلاله بقوله

قَبْلِ الْآيَاتِ السَّابِقَةِ : « كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ، وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ، وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ، يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ ، وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ، يَقُولُ : يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ، فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا ، وَلَا يُوثِقُ وِثْقَهُ أَحَدًا » . ( الْآيَاتِ ٢١ - ٢٦ )

ومن خلال تلك الأهوال الثقيل ينبعث ذلك الصوت الإلهي الرحيم العظيم ، يردد على مسمع النفس الواثقة بربها ، المعتزة بدينها ، الحريصة على قيمها ، الراضية بقدرها . بِأَيِّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ، ارجعي إلى ربك راضية مرضية ، فادخلي في عبادي ، وادخلي جنتي ! ! . . .

° ° °

هذه خمسة أصناف من النفوس ، ذكرها القرآن كتاب الحق ودستور الصدق ، وكل صنف منها له طعم وله مذاق. ولا شك أن شر هذه النفوس كلها هي تلك النفس الأمارة بالسوء الداعية إلى الضلال ، المحرصة لصاحبها على الانحراف والاعتساف ؛ ولا شك أن خير هذه النفوس هي النفس المطمئنة الموقنة ، الثابتة الراضية . وبينهما مراحل ومنازل ودرجات ، فالإنسان الغافل الضال حينما تدركه الرحمة بعد طول شقاء ، ينازع نفسه ويقاومها ، ليقتملها من منبت السوء إلى منبت الخير قدر طاقته ، فهو ينقلها من منزلة الأمر بالسوء - مثلا - إلى أخف منها ، وهي منزلة التسويل بالشر ، ثم يعود فينقلها إلى منزلة أخف ، وهي منزلة الوسوسة بالإثم ، ثم يعود فيزكي هذه النفس ، ويوقظ فيها صوت الضمير ، فإذا هي نفس لومة ، تفكر وتدبر ، وتعتبر فتتجر ، ثم تبلغ القمة ، فإذا هي النفس المطمئنة التي لا تزلها الأهوال ، ولا الشدائد الثقيل ، بل تأخذ لها مثلها الأعلى من الإنسان الكامل الذي ثبت في أخرج المواقف ، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين كان معه

أبو بكر في الغار ، فذلك حيث يقول القرآن المجيد في سورة التوبة :  
 « إِلا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ ، إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ ، إِذْ هُمَا  
 فِي الْغَارِ ، إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهُ مَعَنَا ، فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ  
 عَلَيْهِ ، وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا ، وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ، وَكَلِمَةُ  
 اللهِ هِيَ الْعُلْيَا ، وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » . ( الآية ٤٠ ) .

هذه نفوس خمس : نفس أمانة بالسوء ، ونفس مسؤلة للشر ، ونفس  
 موسوسة بالإثم ، ونفس لومة على التقصير ، ونفس مطمئنة برضوان الله  
 العلي القدير ، فليت كل واحد منا يسأل ذاته : أين نفسى بين تلك النفوس ؟  
 وفي أى طريق تسير ؟ . . أهى فى المقدمة أم فى المؤخرة ؟ . أهى تعلو أم  
 تسفل ؟ . أهى صالحة للاستقامة أم أنها فقدت الأمل والرجاء ؟ . .

لقد كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يضرب القدوة فى الحرص على  
 إصلاح النفس ، فيدعور به قائلاً : « اللهم اجعل فى نفسى نوراً » .  
 ويستعيذ بالله من انحراف النفس ، فيقول : « اللهم إنا نعوذ بك من شرور  
 أنفسنا وسيئات أعمالنا » . ويقول : « اللهم إني أعوذ بك من نفس لا تشبع » !  
 فإذا كان هذا هو شأن رحمة الله للعالمين ، فما يكون شأن الراضين فى  
 الضلال المين ؟ .

« عليكم أنفسكم » . هذا صوت القرآن ، وهذا ميدان جهاد لا يحتاج  
 إلى جيش أو طائرات أو دبابات ، ولكنه يحتاج إلى همة وعزيمة ، ولا بد لنا  
 من معركة مع أنفسنا ، لنصلح للقيام بمعركة مع أعدائنا ، ولتذكر على  
 الدوام قول ربنا : « يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحَضَّرًا ، وَمَا  
 عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تُوَدِّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ، وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ ،  
 وَاللَّهُ رَكُوفٌ بِالْعِبَادِ » . ( آل عمران الآية ٣٠ ) .